



ذات يوم يأتي من يطلبُ منك أن تتحدّث عن تجربتك في الكتابة. وإذا بك، أنت الذي تحترف الكلمات، لا تدري كيف تلخّصُ عمرك على الورق، ولا تدري بالتحديد متى كان مولدك.

فالكاتب يولد فجأة، ولكن غالباً في غير التاريخ الذي يتوقّعه. هناك من يعتقد أنّه ولد كاتباً منذ الأزل. . . وهناك من وُلد أمام أول كتاب أصدره. . . وآخر لم يُولّد إلّا في الأربعين نصّه الأخير. . . لكن، أن تسوّد عشرات الأوراق، لا يعني أنّك مبدع، وأن تصدر أكثر من كتاب لا يعني أنّك كاتب. «همغواي» كان يقول: «الكاتب هو من له قرّاء»، وربّما كان يعني من له معجبون وأعداء.

فإن تكتب يعني أن تفكّر ضدّ نفسك. أن تجادل، أن تعارض، أن تجازف، أن تعي منذ البداية أن لا أدب خارج المحظور، ولا إبداع خارج الممنوع، ولا خارج الأسئلة الكبيرة التي لا جواب لها. ولو كانت الكتابة غير هذا لاكتفت البشرية بالكتب السماوية وانتهى الأمر. ولكن خطر الكتابة ومعتها يكمنان في كونها إعادة نظر ومساءلة دائمة للذات؛ أي في كونها مجازفة دائمة.

وهكذا يمكنني أن أقول إنني في البدء ولدتُ شاعرة، في الثامنة عشرة من عمري، في قاعة مكتظة بالرجولة، ذات أمسية شعرية حين وقفتُ لأقرأ شعراً عاطفياً على جمهور جزائري متحمّس وشرس، جاء نصفه ليُصقّق لي. . . ونصفه الآخر ليحاكمني بتهمة أنوثتي والكتابة عن الحبّ في زمن لم ينته فيه البعض من دفن الشهداء على صفحات الجرائد وبين دفتي الكتب. وممّا زاد في حماس القاعة شهرتي الإذاعية كمقدمة لبرنامج شعري عاطفي يُذاع كلّ ليلة بعنوان «همسات». فقد كان ذلك البرنامج على بساطته انقلاباً على التركيبة النفسانية الجزائرية التي لم تتعوّد سماع الغزل ولا قوله؛ فما بالك أن يأتي من فتاة جزائرية هي من براعم جيل الاستقلال الذي راهنت عليه ثورة بأكملها؟

(*) شهادة ألقيت في ندوة «المرأة والإبداع» في معهد العالم العربي في باريس.



في الواقع، كنا شعباً يعاين من عجز عاطفي لأسباب تاريخية معقدة. ولا أدري كيف اكتشفتُ هذا رغم صغر سنِّي، وجعلتُ من الحب والكلمة الجميلة قضيتي الأولى، معتقدةً أنَّ الإنسان الجزائري مريض وفارغ من الداخل وأنَّ كلَّ الأبنية والشعارات الثورية التي رُفعت حوله بعد الاستقلال لن تساعد في إعمارِه. فوحدهما: اللُّغة والعاطفة بإمكانهما ترميمه وساء إساك حرائري جديد. وربما كان أحد أسباب مشاكلنا الحالية هو إهمالنا، بعد الاستقلال، البنية النفسية والعاطفية لهذا الإنسان وأنشغلنا بالقرى الزراعية والاقتصاد التّمودجي.

جاء أبي من المستشفى مع ممرّضين لسمع شعري!

وهكذا تحوّل الحوار أمام دهشتي إلى نقاش بين أبي والقاعة التي راح نصفها يصفق له وهو يجيب نيابةً عني بحجج فاجأت النّصف الآخر من الحضور الذين لم يفهموا سبب استماتة هذا الأب في الدفاع عن ابنته وعن شرف الشّعْر لا عن شرف الثّورة.. أو شرف القبيلة!

ولم يلحظ أحدٌ دموعه وهو يقبلني عند انتهاء الأمسية ويغادر القاعة ليعود إلى غرفته في المستشفى يرافقه ممرّضاه.

يومها بكيْتُ وأنا أراه ينسحب بالكبرياء نفسها ويتركني أعود وحدي إلى البيت وكأنّه يشرح لي أنّي بدأتُ يوماً قدراً سامشيه وحدي.. وأنّه لن يكون دائماً هنا ليدافع عني. وشعرتُ بمزيج من المرارة والفخر؛ فلقد أحتال أبي على قوانين المستشفى وحضر ساعتين لكي يتقذني غضباً عني من مسلختي الأولى.

لم أكن أعني يوماً وأنا في الثامنة عشرة من العمر أنّي خسرت مدينةً وربحتُ أبي.. وأنّه لن يتمكّن أحد بعد اليوم من أن يهزمني أو يتناول عليّ. ولكنني وعيتُ تماماً أنّي لكي أواجه مجتمعاً رجاليّاً، لا بدّ أن أضمن وجودَ رجلٍ إلى جانبي.

وكهنا هذه الحادثة أذكر الآن بأنم أن أمسيّتي الشعريّة هذه كانت في إطار موسم شعري سنة ١٩٧٣ أخذ فيه شعراً الشباب باللّغتين الحيزّ الأكبر. وهكذا فقد جاءت بين أمسيّتين للشاعرين الشّهيدين الطاهر جعوط ويوسف سبتي اللّذين كانا يكتبان باللّغة الفرنسيّة، وبدأ مشوارهما الشعري معي في ذلك الموسم نفسه وكانا يجهلان أنّ ذلك أنّه، رغم الهدوء والفتور اللّذين قوبلا بهما من طرف الجمهور ورغم الزّوبعة الإعلامية التي حسداني عليها، سيأتي يوم بعد عشرين سنة يتصدّران فيه جميع الجرائد العربيّة والأجنبيّة، لا كشاعرين، وإنّما كشهيدين للشّعْر الجزائري، بعد أن قُتلا نيابةً عنّا ذبحاً ورمياً بالرّصاص بتهمة الكتابة لا غير.

كان ذلك زمنَ التحدّي الجميل. ورغم أنّي كنت الفتاة الوحيدة التي تكتب أنّذاك بين شعراء اللّغتين، فقد كنتُ أشعر دائماً أنّ انتمائي لأحلام ذلك الجيل من الشباب يفوق انتمائي لأنوثتي، وأنّ الشّعْر والوطن هما قضيتي الأولى.. وأمّا الأنوثة فهي مشكلتي وحدي.

تأكّد لي ذلك بعد عدّة سنوات عندما غادرتُ الجزائر لأقيم في

كُتبتُ عن الحبّ في زمن لم ينته فيه بعضُ الجزائريين من دفن الشّهداء على صفحات الجرائد!

يومها كان بإمكان الأصوات الرّجاليّة العدائيّة أن تُغطّي عليّ نبرتي الشاعريّة المرتبكة وتختق صوتي الذي يخرج إلى العالم لأول مرّة. ولكنني وجدت قوتي في الرّجل الذي كنت أخافه وربما أخجل منه.

وكنت قد خطّطتُ تلك الأمسية لتصادف وجودَ أبي في المستشفى حتّى أضمن عدم حضوره والاستماع إلى ما أكتب بعدما كنتُ قد ضمنتُ في الماضي عدم قدرته على قراءتي لجهله باللّغة العربيّة. في الواقع كانت قوتي وجراتي في الكتابة تكمنان في جهل جميع أفراد أسرتي باللّغة العربيّة، بما في ذلك أبي الذي كان شاعراً باللّغة الفرنسيّة، ولم يسألني يوماً عمّا كنت أكتب وإنما كان يتفرّج على صوري في الجرائد بزهو أبويّ.

ولكن أبي الذي كان موجوداً للعلاج في مستشفى عسكري بلغه عن طريق الجرائد خبر تلك الأمسية. وإذا به يقرّر مغادرة المستشفى دون إذن من الطّبيب بعد أن دفع إلى ممرّضيه مبلغاً من المال مقابل مرافقته.

وأذكر أنّه كاد يُعمر عليّ وأنا أرى، من منصّتي، أبي يدخل القاعة محاطاً بممرّضين، فيأخذ مكانه مقابلاً لي.

لم أكن أتوقّع يوماً، وأنا أختار تلك الفصائد بأستفزاز مسبق، أن يكون أبي هو الذي سيسمع لي. رحّت أفرأها مكرهةً لأنّه لم تكن في حوزتي غيرها. وكانت مفاجأتي الأخيرة لحظةً أنتهاء الأمسية أنّ بدأ بعض الحضور بمهاجمتي بتهمة غياب الثّورة الجزائريّة عن أشعاري. وهنا وقف أبي ليطالب الكلمة بصفته أبي. وأذكر أنّه قال: «إنّ ابنتي ولدت أثناء الثّورة ولا يمكنها أن تكتب عن شيء لم تعشه وأن تفتعل ذكريات لتصبح في نظركم شاعرة. هي ليست هنا لتكتب التّاريخ



مزاج عشقيّ، وأن تكون لي يد واحدة لا أكثر أكتبُ بها كلّ هذا وأسرقُ بها كلّ هذا.

جان جينيه كان يقول: «كنتُ من قبل أسرق، اليوم صرت أكتبُ الكتب». وبإمكاني أنا أن أقول العكس: فلقد بدأت كاتبةً وأنتهيتُ سارقة. فإذا كانت الكتابة بالنسبة للبعض ترفاً وتفرّغاً وجاهلاً، فهي بالنسبة لي مواجهةً مع الواقع المضاد. إنها نهبٌ وسطوٌ دائم. فأنا أسرقُ الوقت لأكتب، وأسطو على مكتب ابني لأكتب، وأنحاي على من حولي لأخذ موعداً مع الورق. وسأظلُّ أنهبُ الكلمات كما ينهب بعضهم السعادة. ذلك أن الكتابة هي المغامرة السائبة الوحيدة التي تستحق المجازفة. وعليّ أن أعيشها بشراسة الفقدان كمتعة مهدّدة.

لقد عشتُ عدّة سنوات دون مكتب ودون غرفة للكتابة، أنقل أوراقتي من غرفة إلى أخرى، أكتب أحياناً على طاولة المطبخ وأحياناً في غرفة الطعام أو على سريرتي في غرفة النوم. وأنا أتساءل الآن: الآن كلّ الغرف حولي كانت محجوزة، تعودتُ أن أسكن ذاتي، ولأنّ كلّ الأبواب كانت مغلقة حولي فتحتُ يوماً خطأ باباً كان لا بدّ ألاّ أفتحه وإذا بي أمام نفسي وإذا بي روائية؟

لأراغون مقولة جميلة: «الرواية هي مفتاحُ الغرف الممنوعة في بيتنا». يوم قرأتها أدركتُ أنّ ولادتي الحقيقية كانت يوم فتحتُ ذلك الباب، لأرى امرأة كنت أتوقعها غيري. وإذا بي أصابُ بالدوار والدّهول، وإذا بطوفان الكلمات يذهب بي نحو نص مفتوح ومخيف في نزيهه، لم يكن إلاّ رواية سيكون حجمها أربع مئة صفحة ويكون اسمها ذاكرة الجسد.

فرنسا وأدخل دوامة الحياة الزوجية والأمومة والالتزامات الاجتماعية. ذات صباح استيقظتُ وإذا بي زوجة وأمّ لثلاثة صبيان ودكتورة في السربون وباحثة في علم الاجتماع وطباخة وغسّالة وجلّاية ومربية في كلّ ساعات النهار. كان لي أكثرُ من لقب وأكثرُ من مهنة. غير أنني كنتُ قد فقدتُ لقب شاعرة. ولا أقول إنني تخلّيت عن الشعر، وإنما هو الذي تركني وتخلّى عني لأنني أصبحت أدنى منه.

استيقظتُ ذات صباح لأجد نفسي زوجةً وغسّالة وجلّاية وباحثة في علم الاجتماع؛ لكنني فقدتُ لقب «شاعرة»!

فأن تكون شاعراً يعني أن تكون إنساناً حرّاً حرّيةً مطلقة. . . ولا أقصد فقط أن تكون حرّاً في الإدلاء برأيك أو حرّاً في الذهاب بجنونك حيث شئتَ قولاً وفعلاً، بل يتطلّب أيضاً أن تكون حرّاً في وقتك. أن تكون شاعراً يعني أن تكون بتصرّف الشعر وكأنك نذرت نفسك له. فهو ككلّ حالات الإبداع: يأتيك متى شاء، ويقلب برنامجك متى شاء، فيُلغى لك موعداً ويأخذ لك آخر، ويحجزك ساعات أمام ورقة، ويخرجك من طورك لأيام. الشعرُ ترفٌ ليس في تناول المرأة عندنا. فإذا كان الشاعر المتزوج هو بالضرورة نصف شاعر، وإذا كان الشاعر الذي له وظيفة وأولاد هو ربع شاعر، فما بالك إذا كان الأمر يتعلّق بشاعرة عربية لها عدّة أولاد وعدّة وظائف اجتماعية وأكثر من رقيب عائلي ورسمي؟ إنها ببساطة. . . «فتايت شاعرة»!

وأن أكتشف أنّ الشعر قد غادرنِي لم يُخفني بقدر ما خفت أن يغادرنِي الحبرُ أيضاً وتخونني الكلمات. فأنا امرأة من ورق، تعودتُ أن أعيش بين دفتي الكتب: أن أحبّ وأكره وأفرح وأحزن وأترف كلّ خطاياي على ورق.

تعلمتُ أن أكون كائنًا حبريًا، ألا أخاف من رؤية نفسي عاريةً مرتجفةً على ورق. فأنا أحبّ عريي هذا، أحبّ قشعريرة جسدي العاري أمام بركة حبر. . . وأؤمن أنّ الكلمات التي تعرّينا هي وحدها التي تشبهنا؛ وأما تلك التي تكسوننا فهي تشوّهنا. ولذا كان عنوان كتابي الثاني منذ عشرين سنة هو الكتابة في لحظة عري.

وربما كان لحياة الأمومة والبيت التي عشتها خمسَ عشرة سنة متتالية أثرٌ في تغيير مزاجي الحبري ونظرتي للكتابة. ذلك أن الكتابة لم تعد كلّ حياتي، بل حياة مسروقة من حياتي الشرعية. أصبحتُ أشهى وأصبحتُ أخطر. أصبحتُ حالة مرضية: وعكة حبر وحالة خوفٍ وذعرٍ من شيء لا يمكن تحديده. أصبحتُ حالة تعددية وقدرة على أن أعيش داخل أكثر من امرأة. . . أن يكون لي أكثرُ من نشرٍ جويّة في اليوم. . . وأكثرُ من جسد كلّ ليلة، وأكثرُ من قلب وأكثرُ من

اكتشفت أنني قضيت حياتي أمرّ بجوار تلك الغرف الممنوعة داخلي، معتقدة أنها لا تعنيني لأني أسكن غيرها. والواقع أنني كنت أسكن غيرها وكانت هي التي تسكنني وتشغل الحيز الأكبر من فضائي الداخلي وفضائي على الورق، وبالتالي كانت مفاتيحها هي التي تحكمني وقلها هو ثقب حرّيتي وعبوديتي.

أدرت أن عليّ، لكي أكون كاتبّة، أن أسكن بيتاً من زجاج لا أن أختفي خلف كتب من الإسمنت المسلّح. فالروائي هو الذي لا يتردد في فتح غرفه السّرية أمامك، بل يجرؤ على دعوتك لزيارة الطابق السفليّ في البيت والقبو والأماكن المغلقة التي تكذّس فيها الغبار والأثاث القديم والذاكرة. وكلّ دهاليز النفس التي لم تدخلها الكهرباء بعد، وتلك التي تبعث منها رائحة العفونة المشبوهة.

الروائي هو الذي يفتح لك الباب مرتدياً ثيابه العادية. أو ثيابه الداخلية دون أن يعنيه أنه نسي أثناء ذلك أن يغسل وجهه ويحلّق ذقنه ويخلع منامته لاستقبالك. وعذره في ذلك أن حياته تشبه حياتك، وتفصيله لا تختلف عن تفاصيلك، وأنك أشرتت كتابه لتقرأ نفسك لا غير.

ولكن رغم هذا، فلا بدّ أن أعترف هنا: أننا مهما كنّا نزهاء فنحن نكتب - أيضاً - لنكذب.

والذين يدعون أنهم يكتبون ليكونوا صادقين إلى أبعد حدّ يُضحكونني بسداجتهم. أو بغشهم المطلق. فالكتابة مراوغة مستمرة مع الذات. تحايل دائم على الآخرين. أختبار دائم لقدرتهم على قراءة البياض، ولقدرة الزمن على الاحتفاظ بالسواد من الكلمات.

كنا نكتب لقارئ مجهول، فأصبحنا نكتب لقاتل مجهول!

والواقع أننا نحن نكتب نصّاً دائماً خارج النص. ولذا ففي كل كتبنا صفحة من البياض المطلق هي وحدها قصتنا، صفحة هي كفنُ نكلمات التي ستموت معنا. فكفن الكاتب - كحياته - ليس سوى ما بقي من بياض بين صفحات كتبه وما بقي من ورق أبيض على طاولته.

منذ الأزل. نحن نكتب وندري تماماً أن في نهاية كلّ كتاب حاجزٌ تفتّش ينش في أفكارنا، يفسر أحلامنا، يترّص بنا بين - سلتين، يفسر صمتنا ونقاط الانقطاع بين كلماتنا.

ولكن الجديد أننا كنّا نكتب لقارئ مجهول. فأصبحنا نكتب

لقاتل مجهول يحكم علينا حسب مزاجه. كنّا نعرف الرقيب فنواجهه أو نتحايل عليه، فأصبحنا لا ندري مَنْ يراقب مَنْ وما هي المقاييس الجديدة للكتابة؟

الجديد في الكتابة اليوم. أن القمع كان يأتينا من السّلطة ومن الأهل فأصبح يأتينا من القارئ نفسه.

كنّا نحلم أن نكتب كتباً جديدة. فأصبحنا في الجزائر نحلم بإعادة طبع كتبنا القديمة. فما كتبناه في السبعينات أصبحنا عاجزين عن كتابته اليوم.

كنّا نحلم أن نعيش يوماً بما نكتب. أصبحنا نحلم الآن نموت يوماً بسبب ما نكتب.

كنّا نكتب ونحن نحلم بوطن نموت من أجله. فأصبحنا نكتب لوطن نموت على يده.

كنّا في بدايتنا نحلم أن نغترّب ونصبح كاتباً مشهورين في الخارج. اليوم وقد أصبحنا كذلك، أصبح حلمنا أن نعود إلى وطننا لبضعة أيام. ونعيش فيه نكرات.

منذ عشرين سنة كنت أحلم أن تصلني يوماً دعوة كهذه من باريس لألقي فيها محاضرة. اليوم أصبحت أمنيّتي أن تصلني دعوة من الجزائر. ألقى فيها هذه المحاضرة نفسها وأعود بعدها إلى أولادي.

منذ عشرين سنة كنت أحلم أن أقرأ شعراً في بيروت على جمهور راق، ولكنّتي يومٌ وقفت منذ سنتين لأقرأ شعراً في بيروت غادرت القاعة وأنا أبكي؛ فلقد اكتشفت بعد هذا العمر أن أمنيّتي هي أن أقرأ شعراً في الجزائر لا أكثر، أنني لن أكون شاعرة إلا في وطني، وأني في النهاية قد تعودت على طقوس الكوريدا، وأن ذلك الجمهور الثرس إنما يأتي ليتفرّج على دمي ويعود إلى بيته حاملاً في جيبه أذني كما يفعل الموتادور مع ثور مهزوم. نعم، أحبّتي! لقد تواضعت أحلامنا كثيراً في زمن قصير. أنهكتنا الهزائم القومية والخياب الوطنية، بين زمن الموت وزمن الذهول. دخلنا الزمن المضاد للكتابة. وإذا كان هذا الواقع جحيم الكتاب وحتفهم، فميزته أنه إعادة اعتبار للكتابة ومناسبة لإعادة النظر بالنسبة للذين استرخصوا الكلمة طويلاً، وتناولوا على شرف القلم. فلجّ هؤلاء أن لا نصّ مجانياً بعد الآن، وأنه حان لمن هم ليسوا كاتباً أن ينسحبوا ويتركوا هذا الجحيم للآخرين: لكتاب راعين هم الشهداء الأحياء للكلمة أمثال الصديقة الكاتبة زينب الأعوج وزوجها الروائي واسيني الأعرج ورشيد بوجدره وزشيد ميموني وعشرات المبدعين الجزائريين المشرّدين والباحثين عن مأوى لهم ولأولادهم وعن مساحة صغيرة يعيشون ويكتبون فيها تكون أكبر قليلاً من قبر. وأصغر كثيراً من وطن. لهم أهدي شهادتي هذه التي هي أذني من شهادة حياتهم الحاضرة واحتمال موتهم الآتي. وأما ما قلته لكم اليوم، فلا يستحق الذكر. ولا يساوي قطرة واحدة من دم الطاهر جعوط ولا يوسف سبتي ولا كلّ شهداء الحبر الجزائري.